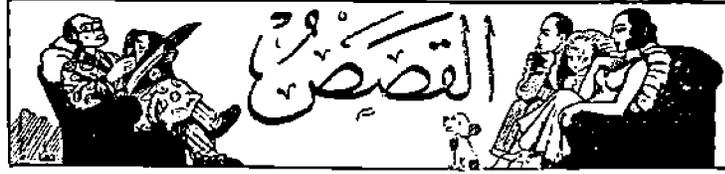


في هذه القرية كان يعيش « همام » بكده لنفسه
ولزوجته عاملاً في مزرعة المممة ، كما يعيش عشرات مثله
قانعين من العيش بالكفاف ، راضين من متاع الحياة بنعمة
الحياة نفسها !



همام

للأستاذ محمد سعيد العريان

[أشكر للآسة الأدبية « قدرية ف » رأيها في قصة
« البث » المنشورة بالعدد ٣٦٢ من الرسالة ، وأرجو ألا يقع
في ومها أني أصف بها أحداً بذاته من أدبائنا ، وإن كان
موضوعها يتصل بحياة كثير من أدباء العربية يرفهم القراء
بأثرهم ويجهلون كثيراً من شئون حياتهم]

عند ما يهيم قطار الصعيد أن يجتاز النيل من شاطىء إلى
شاطىء عند قناطر نجع حمادى في طريقه إلى القاهرة — يرى
الراكب عن يمينه قرية صغيرة يطيف بها الجبل للشرق من ثلاث
جهات ثم ينفرج عن سكة متعرجة تصل بين القرية والنهر ،
وتقوم على جوانبها باسقات النخل حذاءً فاصلاً بينها وبين الصحراء
الشاسمة الممتدة بين النيل والبحر الأحمر

ولكن همام لم يكن من القناعة بحيث يرضى من الحياة
بما يرضى سواد الفلاحين الذين يعملون مئة أجراً في مزرعة
للممة ؛ فقد كانت له نفس طَّلعة تنسأى بها أمانيُّ جسم ؛
وكان من المذلة عند سيده بحيث يتهيأ له أن يكون أقرب إليه ؛
فرأى ألواناً من العيش وفتوناً من اللذة خيَّلت له ما خيَّلت
من الأوهام وأنشأت في نفسه ما أنشأت من النى

ولم يكن قد مضى على زواجه « بمسمة » غير بضعة أشهر
حين جلس إليها ذات مساء يحدها وتستمع إليه :

« مسمة ! ... وسيكون لنا دارٌ ونخيل ، ومزرعة على
الساحل إلى جانب مزرعة المممة ، وسأكون وتكونين ... ! »
واستمتت إليه زوجته فرحانة ، وحلقت بجناحيه في وادى
النى ، وراحت تمتد له عدة الرحيل إلى القاهرة حيث يهاجر
ليلتمس للننى ثم يعود ...

وخرج همام من القرية يحمل على كتفه خُرْجاً فيه زاده

ولد المؤلف سنة ١٩٩٦ هـ وتوفى بدمشق سنة ١٩٦٤ هـ وقد
ترجمه السبكي في الجزء السادس صفحة ٩٤ وجاء ذكره في الدرر
للكامنة لابن حجر الجزء الثاني في حرف الخاء صفحة ٨٧ .
وللؤلف تأليف كثيرة بمضها مطبوع وبعضها مخطوط ومن
أهمها كتاب الواقي بالوقفيات وهو لم يطبع بمد .

(بيت المقدس)

احمد سامح الخالدي

(حاشية) : وهذه المناسبة أرجو أن أجد من القراء الأدباء من
يتكرم بإفادتي عن مؤلف الكتب الآتية :

- ١ — التلائد في أخبار مستظرفات الولايد
- ٢ — الابتهاج في الصبر المؤدى إلى الانفراج
- ٣ — حسن عفو الأدباء من هفوات الأخلاء
- ٤ — أخبار بني حاشم
- ٥ — بلاغة المعجم

الثانوى وهو صاحب كتاب نكت اللميان الذى نشره المنفور له
العلامة أحمد زكى باشا في مصر سنة ١٩١٠
أما المخطوط الذى نحن بصدده فعدد صفحاته ١٩٠ وقد كتب
سنة ٨٤١ للهجرة ونسخ بخط الرقمة بالحبر الأسود وهو يشتمل على
ست مقدمات ونتيجة ويقول المؤلف « إننى سميت كتاب للشعور
بالمور ورتبته على مقدمات ونتيجة ، المقدمة الأولى فيها يتعلق بذلك
من اللغة ، المقدمة الثانية فيها يتعلق بذلك من حيث التصريف
والإعراب ، المقدمة الثالثة فيها يتعلق بمحدث الدجال وكونه أعور ،
المقدمة الرابعة فيها له بالأعور علاقة من الفقه ، المقدمة الخامسة
فيها جاء من الأمثال والنوادر في حق الأعور وغير ذلك ، المقدمة
السادسة فيها جاء من الشعر في المور والموران ، النتيجة في سرد
من كان أعور على حروف المعجم » انتهى . هذا وقد ترجم المؤلف
في هذا الباب سيرة سبعة وسبعين أعور

على قلبها ويزيل وحشتها ، وأما للصبي .. وماذا يدري للصبي بعد ؟
... وتناهت الأهوام وشب الغلام ، لم ير أباه ولم يره أبوه ؛
وماذا بهم اللقي من ذلك وليس بدعاً هناك ، وفي كل قرية من
قرى الصعيد عشرات من مثل هام تزحوا عن أهلهم وولداهم
يلتمسون مثل ما يسمى له ، لا يتواعدون على لقاء ولا يتراءون
منذ الشباب إلا على هرم ... !

ومضت بضع سنين ، قبل أن يفكر هام في زيارة زوجته
وولده ؛ وراحت « مسعدة » تستقبله على شط النيل حيث ترمى
به السفينة ؛ وقال اللقي لأمه وهو يشير إلى رجال على ظهر المركب :
أيهم هو ؟ ونظر هام إلى غلمان وقوف على الشاطئ وقال لنفسه :
أيهم هو ؟ ... ثم للتقيا فتعارفا وحنّ الدم إلى الدم ...

... وعاد الزوجان إلى حديثهما ، وعاد هام يقول : « بلى ،
وسيكون لنا دار ونخيل ... وسأكون ... »

ومضت المرأة أن تقول شيئاً ثم أمسكت ، ورفعت إليه عيني
فيهما ظلمة وشوق ، وفيهما إجاب وزهو ، وأنسبها حلوة اللقاء
سمرارة الفراق ، وعادت الأمانى تخيل لها ، وحلقت بجناحيه
في واديه ، وقالت لنفسها هامة : « سيكون لنا دار ونخيل
ومزرعة ، وسيكون وأكون ... » ثم فادت تنظر إليه وفي عينيها
لمحة وحزين !

... وقضى هام في القرية أياماً ، ثم استأنف رحلته يمشى إلى
أمله ، وخلفها وخلف ولدين : أما أحدهما فغلام لم يكده يرى أباه
حتى فقدته ، وأما للثاني فإنه لم يره قط ، لأنه لا يزال بينه وبين
الحياة تسعة أشهر ... !

لم يكن عبثاً ما تحمل هام من مشقة البعد سنين ومالقي من
جهد الحياة ؛ فلم يكده يمشى عليه في القاهرة بضعة عشرة سنة حتى
تغير من حال إلى حال ؛ فلم يعد العامل الذي يمشى بياض نهاره
حاملاً مكمل الآجر ، ساعداً هابطاً على خشب مشدود بين السماء
والأرض ، ليس له إلا وجبة واحدة من طعام ؛ إنه اليوم رجل غير
من كان ؛ لقد عاد ذلك الثوب الخلق جديداً على جسد ناعم ، وعاد
البطن الخاوي شبهان ريان من طيب الطعام والشراب ،
وعادت القرية المشتركة بين بضعة نفر يفتشون الأرض شقة

ومتاعه حتى بلغ شاطئ النهر ، وخاف زوجته في القرية تنظر .
وكان نمة رمت من جرار مشدودة عتقا إلى عنق يتأهب لرحلة
نهريّة إلى القاهرة ، فوضع هام متاعه عن كاهله وأخذته مركباً
إلى حيث ينشد أمانيه

وأرسي المركب بعد أيام على ساحل « القمطاط » ، فنزل
هام يضرب في شوارع القاهرة ومتاعه على ظهره ، حتى انتهى
إلى مستقره في غرفة من دار في حي « بولاق » بما كنهه فيها
بضعة نفر قدموا لمثل فائحه من بلاد متفرقة في الصعيد الأعلى
فألقت بينهم القرية وجمعهم وحدة الأمل .

ومضى يلتمس الرزق بساعده قوي وعزم صليب ، فلم يلبث
أن انضم إلى جماعة من الفعلة في أعمال البناء ، يمضى شط نهاره
يحمل مكمل الآجر ساعداً هابطاً على خشب مشدود من أسفل
البناء إلى أعلاه ومن أعلاه إلى أسفل ، ينضح العرق جبينه
ولسانه لا يفتر عن الغناء ، يصف أشجان الغريب للنازح إلى
أمل رجوه ومن خلفه حبيب ينتظر ؛ فإذا حيت الظهيرة فاه
إلى ظل جدار قائم يتناول طعامه لقمة من خبز قديد وملح
جريش وماء ؛ ثم يستأنف عمله ...

لم يكن العمل الذي يزاوله هام مما أرفح حين كان يمشى
بين أهله في القرية الطمئنة في أحضان الجبل الشرق ، ولكنه
كان أحب إليه لأنه كان أكثر جدوى عليه . واستطاع
أن يجمع من فضل أجرته بعد شهرين جنباً وبعض جنيه ،
أرسل منه ما أرسل إلى زوجته وأدّخر الباق لنفسه ، ودأب
على ذلك من بعد ؛ فكان لزوجته من فضل أجرته كل شهر
نصيب معلوم ، ولصندوق الادخار ما بقي ... ولما جاءه النبأ
أن زوجته قد وضعت ، أرسل إليها بهدية وعلاوة تشتري بها
كسوة للصبي ، ولكنه لم يُفعل أن يضع في صندوق الادخار
ما يضع في كل شهر ، رجاء أن يكون له يوماً دار ونخيل ، ومزرعة
على الساحل إلى جانب مزرعة الممعة ، هناك ، حيث تنتظر
زوجته وأم ولده ... !

لقد مضى عام منذ هجر هام القرية يمشى إلى اللقي ، وإنه هنا
وزوجته هناك ، وولده ؛ أما هو فكان له شأن يشغله عن التفكير
والحزين ، وأما هي فكان لها أمل تأمله في يوم قريب — يربط

كانت أسخط لظنها وأشق ؛ لأنها لم تألف الحياة في القرية ولم
ترض الشركة في رجل ...

وأصبح هم ذات صباح فإذا امرأة واحدة في الدار وقد فرّرت
الأخرى ... وثار نخوة الرجل وغضب لمرضه غضبة أهله ،
فأزعج أسراً ؛ وغضب الولد لأبيه وأقسم ليضلعن اللمار بالدم ...
... وواد « حمدان » بن همام من القاهرة بمد أيام وسكنه
يقطر دماً ... واستقبله أبوه من هو أغوراً فضمه إليه وقبل جبينه ،
واستقبلته أمه وأخته ...

وجلست الأسرة الأربعة مجلسهم لأول مرة ، مجلساً لم يجمعهم
مشه منذ كانوا على صفاء ومودة ، وقالت مسعدة : « همام ا »
وكان في عينها عتاب وقهها رضاء واطمئنان
وقال همام : « مسعدة امعذرة إليك ؛ إنك أنت وحدك ...
وكانت غلطة ... ا »

وابتسمت مسعدة وعاد للشباب يتألق في جبينها بشرأ
ومسرة ، وانيمت الأمانى تحدثها حديثها ، وحلقت بجناحين
في وادي المنى ، وقالت : « ... ويكون لنا دار ونخيل ، ومرعة ا »
واقترت شفقتاه وقال : « ذلك أولى لك يا مسعدة وأنت له
أهل ؛ وهذا المال ... »

ودق الباب فاقطع الحديث ، ودخل الداخل ثم خرج ،
وخرج وراءه همام وزوجته وابنته يشيعون حمدان وفي يديه
الحديد مسوقاً إلى المسجن ا

لم يشتر همام داراً ولا نخيلاً ، ولا مرعة على الساحل ؛ ولم
يبق له من ماله باق ، وأنفق ذخيرة العمر ليفتدى ولده من زلة
ساعة فلم يجده عليه ا

وواد همام كما بدا ، أجيراً يكذح لنفسه ولزوجته وابنته حاملاً
في مرعة السمدة ، قائماً من اللعيش بالكفاف ، راضياً من معام
الحياة بنعمة الحياة نفسها ...

7 وخرج حمدان من المسجن بمد عشر سنين لتستقبله أمه
الأيام للنجوز وحيدة فتصعبه إلى قبر أبيه يترحم عليه ، أبوه
الذي لم يره إلا مرة ثم مضى كل منهما لوجهه ، كما يلتقي اثنان
انتفاقاً في طريق ثم يتداربان فلا لقاء ا محمد سعيد الصبياني

ذات أمانث ورياش ؛ وعاد الأجير الفقير سيّداً يجيرى النفقة
على أجرائه وخوكه ؛ وتلاقت دراهمه فتصجت وأصبح ذامال ا
وتصرمت بضع سنين لم تره زوجته ولم يرها ، أما هي فماشت
هناك صابرة قائمة بما يرسل إليها كل شهر من نفقة ، تسمى وتصبح
حالة بالدار والنخيل والمزرعة ، ويوم تكون ويكون ؛ وأما هو ،
فتبدلت حياته بما تبدل من حاله ، وأجدت له للنمأة أمانى
فأنمته أمانى ، وعاش لنفسه ولماله ا

وشب الغلام واخضر شاربه ، ونهدت البنث وكب نديها ،
وشابت الأم وتجدد لحمها ، وما زال شباب قلبها يجده لها أملاً
بمد أمل ، وينشى لها في كل مشرق شمس وبشرها حنيناً ولهفة ؛
والرجل هناك يبيع ويشترى ويتموض ويرايح بين جنبيه من
فراش إلى فراش ا

وجنّة ، أظلمت للقاهرة بمد نور ، وهدمت بمد نشاط ،
وسكنت بمد حركة ، ونسب للندير يوقظ للنائم ويحرك للسالكين
ويبدد الشمل المجتمع ليجمع للشمل المتفرق ؛ وكمدت سوق همام
بمد تفاق ، فأزعج للغريب الإياب ا

لم بمد همام في هذه المرة إلى القرية على رمث في البحر تدفمه
الريح ، ولم يكن على كتفه خرج فيه زاده ومناعه ، ولم تكن
رحلته طويلة موحشة تقاس بالليالي والأيام ؛ ولكنه عاد في القطار
السريع يؤنسه أئيس غير مملول ؛ في يمناه حقيقة سفره وفي
يسراه زوجته الحضرية المسقولة ا

وكانت « مسعدة » وولداها ينتظرونه ليعاده ، ... ونظرت
اسرأة إلى امرأة ثم أعضتا ؛ أما واحدة فصبرت وشكرت ؛
لقد سلخت شبابها متزوجة ولا زوج لها ، فإنها لنمئة أن تظفر
اليوم بنصف زوج ا ... وأما الأخرى فخنقت وسخطت ؛ لقد
كان لها زوج يؤثرها ففقدت نصفه ا

وأغلق الباب على رجل وامرأتين ؛ وعزفت كل واحدة
منهما مكانها من صاحبها ومن صاحبها ؛ أما مسعدة فراحت
تنحجب إلى صاحبها وتتمبّد لها لتتال رضاها ورضا همام ، وأما
صاحبها فراحت تشمخ وتقامر لتتسلط وتتحظى ؛ واقسمت
المرأتان الدار فواحدة لها الفراش وواحدة للهنة والعمل ؛ وقالت
المرأة لسكل منهما : لقد عرفت مكانك ا ... ولكن أحظاها